قصص القرآن

أصحاب السبت

قلم: أحمد بهجت

ريشة: مصطفى حسين



دار الشروق

قصص القرآن



أصحاب السبت

قلم : أحمد بهجت — ريشة : مصطفى حسين



دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م

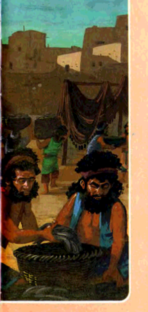
© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

هيَ قريةُ « إيله » .. وهي قريةٌ يَعيشُ أهلُها على صَيدِ الأسماكِ أو الحيتانِ .

أمّا القريةُ فيسكُنُها قومٌ ينحدِرونَ من سُلالةِ بَني إسرائيلَ ، وكان بَنو إسرائيلَ يُقدِّسونَ السَّبتَ مثلَ آبائِهم ، ويَجعلونَه للعِبادةِ وَحدَها .. ولا يُزاوِلونَ فيه أيَّ عملٍ من أعمالِ الحياةِ الدُّنيويَّةِ . . .

كان مُحرماً عَليهم يومَ السَّبتِ مثلاً أن يَصطادوا السَّمكَ ، كما كان مُحرماً عَليهم أن يُوقِدوا ناراً . .

وكانتْ هُناكَ نُصوصٌ حاسِمةٌ تُهدِّدُ مَن يخرُجُ على حُرمةِ اليومِ ويَرتكِبُ فيه أيَّ فِعلٍ مِنَ المُحرَّماتِ .



وكانتِ القريةُ تعيشُ على الصَّيدِ وتِجارتِه ، كما كان بعضُ أهلِها يَعيشونَ على بَيْعِ العَنْبَرِ ، وكان رِزْقُ القريةِ واسعاً .. ثم شاءَ اللهُ تَعالى أنْ يَمْتحِنَ أهلَها ..

على ساحلِ البحرِ .. وقريباً من القريةِ .. كانَ هُناكَ حَجَرانِ أبيضانِ تَخرُجُ الأسماكُ إليهما ليلةَ السَّبتِ ويَومِه ..

كانتِ الأسماكُ تأنَسُ في هذا الوقتِ وتأمَنُ .. إنها تأنَسُ للسَّلامِ الذي يَخْلو من شِباكِ الصَّيدِ ، وتأمَنُ للناسِ إذْ يَنظُرونَ إليها دونَ أن يَمُدُّوا إليها يداً ..

وَهكذا تَظهرُ الحِيتانُ طِوالَ ليلةِ السَّبتِ وطِوالَ يومِه جِوارَ الصَّخرتينِ .

فإذا انقضتْ لَيلَةُ السَّبتِ ويَومُه أدركتِ الحِيتانُ أن وقتَ السَّلامِ والأمنِ قد انقضَى . . فَتعودُ في أسرابٍ سَريعةٍ إلى البحرِ ، وتَغوصُ داخِلَه وتَختفي مُبتعِدةً عن شاطئِ القَريةِ .

وهكذا يَتعذَّرُ على القومِ صَيْدُها .

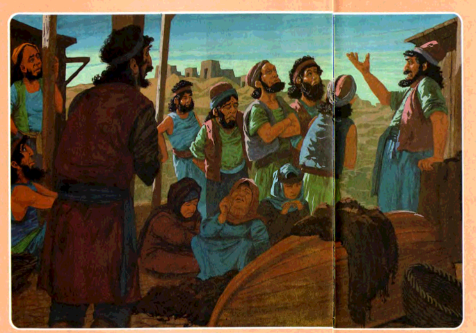
وقد تكرَّرتْ هذه الظَّاهرةُ حتى لَفَتتِ انتباهَ أهلِ القريةِ وبَدأَ الصَّيادون يتساءَلونَ . هل تُفكِّرُ الحِيتانُ ؟ هل تَنطوي هذه المَخلوقاتُ على لونٍ من ألوانِ الإدراكِ ؟ وإذا كانَ الجوابُ بالنَّفيِ فكَيفَ تَظهرُ يومَ السَّبتِ وهي آمنةٌ من الصَّيدِ وتَختفي بعدَه ؟

وهلْ في مياهِ البحرِ مِزْوَلَةٌ أو « ساعةٌ » تَدلُّ على الوَقتِ ؟ كيف تَعْرفُ الحِيتانُ أيامَ الأسبوعِ ، وكيف تَعرفُ أن هذا اليومَ هو السَّبتُ فتظهرُ فيه ، فإذا مرّ اليومُ عادتْ تختفي ؟

حَيَّرتْ هذه الظاهرةُ كثيراً من الصَّيادينَ في القريةِ . وحيَّرهم أكثر أنّ الحِيتانَ لم تكن تُخطِئُ أبداً وتَظهرُ في أيامِ الأسبوعِ الأخرى التي أُحِلَّ فيها الصَّيدُ . .

وبدأَتْ أحوالُ القريةِ تتغيَّرُ . . إن الأيامَ تَمرُّ وهم يَخرجونَ للصَّيدِ ويَعودونَ بِشِباكِهم فارغةً . وهكذا اجتمَعَ رُؤساءُ القَريةِ وَراحوا يُناقشونَ المَوقفَ الجَديدَ الذي وَجَدوا أنفُسَهم فيه .

قال رئيسُ السُّوقِ : قد أقفرَ السُّوقُ إلا من الأسماكِ الصَّغيرةِ التي لا تُغني



ولا تُسمِنُ من جُوعٍ ..

وقـالَ رئيسُ الصَّيادينَ : إنَّ الشِّبـاكَ تَعودُ من البحرِ وهي مُمتلِئَةٌ بالهواءِ مُبتلَّةً بماءِ البحرِ المالحِ ولا سَمكَ هناكَ .

وهـا هـو الشِّتـاءُ يَـدخُـلُ على الصَّيادينَ ، فمن أين يُطعِمـون أنفُسَهم وأبناءَهم ؟

وقـال رئيسٌ آخـر : إنَّ الأسمـاكَ تَتصرَّفُ كما لـو كانت تُغيظُنا .. إنها تَظهرُ في اليومِ الذي تَعرفُ أنَّ الصَّيدَ مُحـرَّمٌ فيـه ثُم تَختفي بقيَّـةَ أيـامِ الأسبوعِ .. إن الأسماكَ تتحدَّانا ..

وراحتِ الشَّكوى تَنحدرُ من أفـواهِ الرِّجالِ ، وأسفرَ الاجتماعُ عن انْقسامِ الرَّأيِ .

قال فَريقُ المُؤمنينَ :

– إنّ الله يمتَحِنُنا بمـا يحـدثُ ، فلنصبرْ ولْنَجتهـدْ في الخُـروجِ إلى البَحرِ ، ولْنستَمِـر في مُحـاوَلاتِ الصَّيدِ .. ومن يَدري .. عَسى اللهُ أن يرفَعَ عنا البَلاءَ ويُوسعَ في رِزْقِنا ..

وقالَ فَريقُ المُعانِدينَ :

– هـذا آستِسْلامٌ .. إنَّ الأسمـاكَ تَمكُـرُ بنا وتتعـاملُ معنـا بأكبـرِ قـدرٍ من الغَـدرِ والخديعـةِ .. لن نتركَهـا تَعبثُ بِنا ..

تَساءَلَ أحدُ المُؤمنينَ :

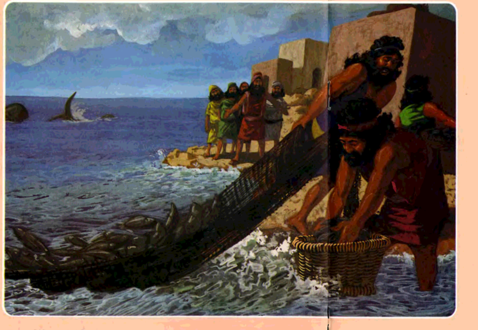
– ما الَّذي يَعنيه قَولُكُم هذا ؟

قالَ المُعانِدونَ :

– سَوفَ نَرى .. سَوفَ نَرى ..

وآنفضَّ الاجتِماعُ ودَبَّ الخِلافُ في القَريةِ .

آنطوَى المُعانِـدونَ على فِكْرةٍ أشـدُّ



في ظَلامِها من قاعِ البَحرِ أثناءَ لَيلٍ عاصِفٍ شَديدِ الظُّلمَةِ . قالوا لأنفُسِهِم :

ــ إنّ الأسماكَ تَمكُرُ بِنا فَلِماذا لا نَمكُرُ بها نحنُ ؟ سَنُلقي شِباكَنا في البحرِ يومَ السَّبتِ ، والحيتانُ تَملؤُهُ ، سَتَمتلِئُ شِباكُنا بالسَّمكِ . حين يأتي يومُ الأحدِ سنُغلِقُ الشِّباكَ على السمكِ قبلَ أن يتسرَّبَ إلى البحرِ . .

وبهذا نَكونُ قد وَفينا بِتَعاليمِ شَريعتِنا التي تُحرِّمُ الصَّيدَ يومَ السَّبتِ وفي نفسِ الوَقتِ نكونُ قد أنقذْنا أنفُسَنا مِن الجُوعِ . .

قال أحدُهم وهوَ يُفَكِّرُ :

ــ إنّ القريةَ تَمتلئُ بالخلجانِ التي تَصلُ إلى بيُوتِنا ، والجَداولِ التي يَجري منها ماءُ البحرِ . . سننتظِرُ حتى تَمتلئَ الجَداولُ بالحيتانِ ونُحكِمُ سَدَّها عليهِم يومَ السَّبتِ ، فإذا جاءَ الأحدُ ألقينا سِلالَنا وشِباكَنا واصطدْناها . .

قال أحدُهم وهو يَعبِسُ بوجهِهِ :

ــ إنّ هذا تَحايُلٌ على الشَّريعةِ . . أو هو لَعِبٌ بها . . أيُّ شيءٍ يُصيبُنا لو فَعلنا ؟

أخمَدوا صوتَ العقلِ الوَحيدِ الذي طَفا وسطَ مُؤامراتِهِم ، وقالوا له :

ــ لن يُصيبنَا شيءٌ . .

وجاءَ يومُ السَّبتِ على القريةِ ، ونَفَّذَ المُعانِدونَ حيلَتَهُم وسَجَنوا الحيتانَ وحاصَروها في شِباكِهِم وَسَحَبوها يومَ الأحدِ . .

وشَهِدتِ القريةُ عُرساً كبيراً رقَصَ فيهِ الرَّاقِصونَ والرَّاقِصاتُ ، وغَنَّوا وَشَربوا وأكلوا على ضوءِ المشاعِلِ

حتى الصَّباحِ .

وآكتشفَ المُؤْمنونُ ما حـدثَ في اليومِ التَّالي . .

زادتْ دَهشتُهُم . .

تَساءَلَ المُؤْمِنونَ : من أَينَ جاءَتْ هذهِ الأسماكُ كلُّها ؟

قـالَ المُعـانـدونَ : آصطدْنـاهـا بجُهدِنا وذَكائِنا من البحرِ . .

تَساءَلَ المُؤْمنونَ : هـل تمَّ صَيدُها يومَ السَّبتِ ؟

قالَ المُعاندونُ : بل يَومَ الأحدِ . . لم نُخرِجْها من البحرِ قبلَ يومِ الأحدِ . .

قالَ المُؤْمِنونَ : هذا أمرٌ مُريبٌ . . لقـدْ خَرجْنـا مِثلكم إلى البحرِ يـومَ الأحدِ . . وعُدنـا كما خَرجنا بغيرِ صيدٍ . كانَ البحرُ خُلواً منَ الحِيتانِ . . من أَينَ جاءَتْ أسماكُكُم ؟

قـالَ المُعـانـدونَ : جـاءَتْ من البحرِ . . إنّ السَّمكَ لا يـوجدُ على البرِّ .

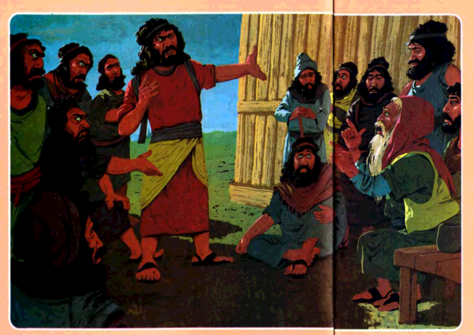
أدركَ المُؤْمنونَ أنَّ هُناكَ شَيئاً ما قد حـدثَ . . ورَبطوا في أذهـانِهم بين ما قالَه هؤلاءِ من أنّ الأسماكَ تَمْكُثُ بهم ، وأَنَّهم سَيَمكرُون بها . .

وَقرَّرَ المؤمنونَ أن يَعـرِفوا حَقيقـةَ ما حدثَ . . وَراقَبوا المُعاندينَ طوالَ يَومِ السَّبتِ وسَهِروا ليلةَ الأحدِ يَرقُبونَهم . . وآكتَشفوا حيلةَ المُعـانـدينَ وفَضحـوا أَمْرَهُم . .





قـالَ المُؤمنونَ : هـذا تَحايلٌ على الشَّريعةِ وعَبثٌ بِها . إنّ عَذاباً هائِلاً يَنتظِرُكُم فَعودوا إلى الله وآستغفِروه من ذَنبِكم . .



كانتْ قُلوبُ المُعانِدينَ قَد قَستْ ، أما عُقولُهم فكانتْ أَشَدَّ قَسوةً . رَفضوا نَصيحةَ المُؤمنينَ .. وأَصرُّوا على خُطَّتِهم ، وآستكبَروا على كَلِمَةِ الحقّ ، وقالوا إنهم أَحرارٌ في الصيدِ كما يُحبونَ وإنهم لن يَتركوا الأسماكَ تَعبثُ بِهِم ..

وآنقَسمتِ القَريةُ إلى ثلاثِ فِرقٍ ..

فِرقةٌ تَنصحُ بالمَعروفِ وتَنهى عن العبثِ بالشَّريعةِ ، وفِرقةٌ مُعانِدةٌ تَتحايلُ على الشَّريعةِ ، وفِرقةٌ وقفتْ تَرقبُ ما يَجْري دونَ تَدخُلٍ منها بالنَّصيحةِ أو الأمرِ بالمَعروفِ .

وآشتبكَ أهلُ القَريةِ في صِراعٍ .

كانَ عددُ المُؤمنينَ قَليلاً .. أما المُعانِدينَ فكانوا أَغلبيةً .. ورغمَ ذلكَ أسفَرَ الصِّراعُ بينهم عن تَكافُؤِ القُوَّتينِ .. وتَوقَّفَ الصِّراعُ وجَلسوا يَتحاوَرونَ .. قالتِ الفئةُ التي وَقفتْ على الحِيادِ في الصِّراعِ الدائرِ .. قالتْ هذهِ الفِئةُ للمؤمنينَ :

﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ .

رَدَّ المُؤمنونَ :

﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ .. إنما نَعِظُهم لِيَعذرَنا اللهُ تَعالى ويَعلمُ أَننا قد أَدَّينا واجِبَنا وأَمرناهُم بما فرضَ علينا .. أيضاً ننصحُهُم ليَتوبوا عن معصيَتِهم ويَخْرجوا من بِحارِ الخطيئةِ التي سيغرقونَ فيها .

قالتِ الفئةُ التي وقفتْ على الحِياد : دَعوهمُ لِعذابِهم فإنهم لا يستحقُّونَ النَّصيحةَ ..

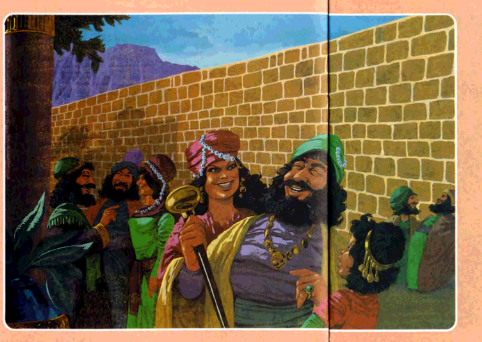
وعادَ الحِوارُ يدورُ بَينهمُ ..

قال المُعانِدونَ لِلمُؤمنينَ : اخرجُوا مِنَ القَريةِ وَدَعوها لنا . .

قال المُؤمنونَ : إنَّها قريتُنا مِثلما هي قَرْيَتُكُمْ . . لنْ نَخْرُجَ مِنْها . .

وعـادَ الصِّراعُ يَحتـدِمُ ، ثم اتَّفقَ الجَميعُ على بِناءِ حاجزٍ بينَ المُعانِدينَ والمُؤمِنينَ في القَريةِ . .

قـرَّروا بِناءَ حـاجزٍ يُقسمُ القَـريةَ إلى قِسمَين . . قِسمٌ صَغيـرٌ لِلمُؤمنيـنَ ، وقِسمٌ ضَخمٌ لِلمُعـانِدينَ . . وبـدأ بِناءُ الحَـاجِزِ . . وَراحَ يَـرتفِـعُ يَـومـاً بَعـدَ يَوم .



ازدَهرتْ أحوالُ المُعانِدينَ ، وأثْروا وتَـراكَمتْ أموالُهُم وكثُـرَتْ قُصـورُهم ولبِسوا الذَّهبَ والجَواهِرَ .

ولمْ يَيْأسِ المُؤمِنونَ مِن تـذْكيـرِهِم بمـا يَنْبغي عليهِم أنْ يفعلوهُ ، ذكَّروهُم بـالطَّاعـةِ . . واحترامِ الشَّـريعـةِ . . وأمَـروهُم بـالمَعـروفِ ونَهَـوهُم عَنِ المُنْكَرِ . .

ولكنَّ المُعـانِـدينَ رَكِبـوا رُؤوسهُم وتَبِعـوا هَـواهُم ورَفضـوا الاستِمـاعَ للنَّاصِحينَ . .

لقـد عَتـوا عمَّـا نُهـوا عنـه . . كـانَ مَـوقِفُهُم تمرُّداً واضِحـاً وصَـريحـاً على الله والحقِّ . . والشَّريعةِ . .

وكـرِهَ الله المُعـانِـدينَ وقـالَ تَعـالى لهم : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

وانقَلَبَ المُعانِدونَ إلى قِرَدةٍ . . لم تَزَلْ في أيديها وأعْناقِها ما كـانَ بأيْـدي الـرِّجالِ والنسـاءِ وأعناقِهِم حين كـانوا بشراً . .

مسخَ اللهُ تعالى المُعانِدينَ إلى قِردةٍ ..

كان التَّحوُّلُ من بَشرٍ إلى قِردةٍ زلزالاً نفسيّاً هائلاً أصابَ القومَ .. لقد سَقطوا من كرامةِ الإنسانِ وحُرِّيتِه وعَليائِهِ إلى سِجنٍ حيوانيٍّ لِقِرَدَةٍ تَعرِفُ أنها بَشرٌ ..

قِردةٌ لا تتصرَّفُ كالقِرَدةِ .. ولا تَحسُّ بإحساسِ القُرودِ .. وبَدأتِ القِردةُ تعوي حُزناً وتُحاوِلُ الكَلامَ فلا تستطيعُه ، وهرعوا إلى أقارِبِهِمْ وَجيرانِهِم مِنَ المُؤمنينَ يتمسَّحُونَ في أقدامِهِم ويُحاوِلونَ إفهامَهُم ما حَدَثَ .

أثارَ مَشهدُ القِردةِ ذُعرَ المُؤمنينَ وهرعُوا إلى قُصورِ المُعانِدينَ وشَوارِعِهِم فوَجدوها تَمْتَلِئُ بالقِردةِ التي تَتصايحُ وتَعوي وتُمزِّقُ شَعرَها ألماً ونَدماً على ما كانَ منها .. كانَ المَوقِفُ فاجِعاً ..

فَهِمَ المُؤمنونَ ما حدَثَ ..

أحَسُّوا أنَّ قُلوبَهُم تَهوي في صُدورِهِم من الخَوفِ ..





كانَ المَشهدُ مُؤثِّراً والقِردةُ تَلجأُ لِلمُؤمنينَ وهي تَبْكي وتَعولُ ..

وأحسَّ المُؤمِنونَ بالحُزنِ على أوجاعِ القِردةِ التي هَوتْ من كَرامةِ البَشَريَّةِ إلى سَفحِ الحياةِ الحَيَوانيَّةِ ..

ولم يستطِعِ المُؤمِنونَ أن يَفعلوا شيئاً يُخَفِّفُ من آلامِ القِردةِ .

وَقرَّرَ المُؤمنونَ هَجرَ القَريةِ ..

وخَرجوا ذاتَ يَومٍ منها وتَركوها لِلقِردَةِ ..

وانْطَوَتْ صَفحةُ المُعتَدينَ مِن أصحابِ السَّبتِ .

مطابع الشروق



وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى
ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ وَإِذْ قَالَتْ
أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟
مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا
نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ

صدق الله العظيم